المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العـــدد 17 أيـار 2025
No.17 May 2025

نسق الفحولة في شعر طرفة بن العبد

أ. د. ستار جبار زريج
م. م انتصار كاظم عبد
جامعة المثنى - كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص:
يهدف البحث إلى دراسة نسق الفحولة في شعر طرفة بن العبد، وانتظم في: مقدمة، وقسم نظري، انقسم إلى ثلاثة محاور، تناول الأول التمهيد، في بيان النسق الثقافي لغة واصطلاحًا، والفحولة لغة واصطلاحًا، وبيان مكانتها الاجتماعية، وتناول الثاني: نسق الفحولة، ومفهومه العام، وتناول الثالث: الشعر الجاهلي وارتباطه بنسق الفحولة. وقسم تطبيقي: تناول نسق الفحولة في نماذج من شعر طرفة بن العبد، من فحولة الحرب والقتال، والعتاب والاتهام، والضحية. واتبعت الباحثة فيه المنهج الأسلوبي، وكان من أهم نتائجه: أنَّ مصطلح الفحولة يرجع إلى أوائل النقاد الذين أطلقوا لفظ الفحل على الشعراء، كما قلَّت فحولة الشعراء بمجيء الإسلام؛ وتتميز شخصية فحل الفحول بأنه صاحب الأنا الناقبة لغيره المتضخمة، وأن الهجاء هو أكثر الأغراض الشعرية التي ظهرت فيها الفحولة.
الكلمات المفتاحية: النسق الثقافي- الفحولة- الشعر الجاهلي.

The System of Virility in the Poetry of Tarafa ibn al-Abd

Prof. Dr. Sattar Jabbar Zraij
A.L. Intisar Kadhim Abid
Al-Muthanna University - College of Education for Humanities

Abstract:
This research aims to study the system of virility in the poetry of Tarafa ibn al-Abd. It is organized into an introduction and a theoretical section, divided into three axes. The first deals with the introduction, explaining the cultural system linguistically and technically, virility linguistically and technically, and its social status. The second deals with the system of virility and its general concept. The third deals with pre-Islamic poetry and its connection to the system of virility. The applied section examines the system of virility in examples of Tarafa ibn al-Abd's poetry, including the virility of war and fighting, reproach and accusation, and victimhood. The researcher followed a stylistic approach, and one of its most important findings is that the term "virility" dates back to the earliest critics who applied the term "stallion" to poets. Furthermore, the virility of poets decreased with the advent of Islam. The character of the "Fahl al-Fuhol" (the stallion of stallions) is characterized by an inflated ego that criticizes others, and satire is the most common poetic genre in which virility appears.
Keywords: Cultural System - Virility - Pre-Islamic Poetry

المُقدِّمةُ:

تعتبر الأنساق الثقافية أحد المفاهيم الأساسية في النقد الثقافي؛ حيث عبرت عن مجموعة القيم التي تتوارى خلف الخطابات والنصوص؛ فالأنساق الثقافية عبارة عن تشريعات أرضية وقوانين صنعها الإنسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة.

كما أنَّ لنظرية النقد الثقافي دورا كبيرا في إعادة القراءة للنصوص الأدبية قراءة تفاعلية من خلال الكشف عن تحليل النصوص وإبراز تمثلاتها الثقافية والمعرفية؛ فقد اهتمت هذه النظرية بالجانب الثقافي للنصوص وبيان دلالتها النسقية، خلاف غيرها من النظريات التي احتفت بالجوانب الجمالية للنصوص، كما أنها أظهرت العيوب النسقية في النصوص، فكشف النقد الثقافي المخبوء تحت أقنعة البلاغي.

وعليه، فقد وقفنا في بحثنا على مصطلح الفحولة لدى الشعراء في العصر الجاهلي؛ لما تميز الشاعر في ذلك العصر بالمكانة المرموقة؛ فالشاعر كان لسان قومه المعبر عن مفاخرهم ومآثرهم، كما تعددت أغراض الشعر في العصر الجاهلي وخاصة الهجاء الذي تميز به الشعراء الفحول؛ واخترنا فحلا من هؤلاء الفحول بلغ الفحولة الشعرية في سن صغيرة؛ فظهر نبوغه في الشعر مع حداثة سنه؛ ألا وهو طرفة بن العبد.

وقد انتظمت الدراسة في قسمين وكالآتي:

القسم الأول: الدراسة النظرية، وفيها ثلاثة محاور، وهي:

- المحور الأول: التمهيد، وفيه:

أ- النسق الثقافي بين اللغة والاصطلاح.

ب- وبيان الفحولة في اللغة والاصطلاح، وذكر منزلتها بوصفها مكانة اجتماعية تمنح للشاعر الجاهلي.

- المحور الثاني: نسق الفحولة، ومفهومه العام.
- المحور الثالث: الشعر الجاهلي وارتباطه بنسق الفحولة.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية: [نسق الفحولة في شعر طرفة بن العبد]

القسم الأول: الدراسة النظرية

المحور الأول: التمهيد:

أ- النسق الثقافي بين اللغة والاصطلاح.

- **النسق لغة.**

جاءَ النَّسَقُ في المعاجِمِ اللغويَّةِ بمعنى التَّتابُعِ، وخَرَزَ نَسَقًا؛ أي: نَظَّمَ. ويُقالُ: ثَغْرٌ نَسَقٌ؛ أي: أَسْنانُهُ مُتَساوِيَةٌ مُتَناسِقَةٌ(الصاحب بن عباد، د. ت، ص: ٤٤٩. الجوهري، ١٩٨٧، ٥١٦٥. ابن الأثير، 1979، 5/ 48).

ويُطْلَقُ على الكَلامِ أنَّهُ كَلامٌ نَسَقٌ إذا جاءَ على نِظامٍ واحِدٍ، مُعْطَفًا، قد عُطِفَ بَعْضُهُ على بَعْضٍ. والنَّسَقُ اسمٌ مُشْتَقٌّ من نَسَقَ يَنْسُقُ(ابن فارس، ١٩٧٩، ٥/ 420) ، والنَّسَق: اسم مشتق من نَسَقَ يَنْسُق(الحميرى، 1999، 6574/10).

- **الثقافي لغة**

هو اسمٌ مَنْسوبٌ إلى الثَّقافَةِ التي مِن "ثَقَفَ"، فيُقالُ: ثَقِفَ ثَقافَةً؛ أي: أَصْبَحَ خَفيفًا حاذِقًا، ويُقالُ: ثَقِفَ بالشيءِ؛ إذا ظَفِرَ به(ابن فارس، ١٩٧٩، 1/ 383. الجوهري، ١٩٨٧، 4/ 1334. عمر، 2008، 1/ 319).

- **النسق الثقافي اصطلاحا**

النسق الثقافي عبارة عن تشريعات أرضية وقوانين وضعها الإنسان في مقابلة التعاليم السماوية التي أنزلها الله تعالى في الشرائع، وقام بوضعها الإنسان لتصريف أموره وضبط نفسه، كما أنَّها تعبر عن تصورات الإنسان القديم لما يجب أن تكون عليه الحياة، وبالتالي تكون قابلة للتطور مثل باقي عناصر الحياة(عبد الفتاح، 2010، ص: 151).

ودرس عبد الله الغذامي مفهوم النسق كمفهوم مركزي في المشروع النقدي، مما أكسبه سمات اصطلاحية خاصة وقيما دلالية، كالآتي(الغذامي، 2005، ص: 77 :80):

1- تحديد النسق خلال وظيفة وليس خلال الوجود المجرد، وبالتالي فالوظيفة النسقية ن تكون إلا في وضع مقيد ومحدد، حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب، ويكون أحدهما ظاهرا، والآخر مضمرا.

2- يقتضي النص إجرائيا قراءة النصوص، والأنساق التي تكون هذه صفتها قراءة خاصة من وجهة نظر النقد الثقافي، ومن ثم يكون النص حادثة ثقافية، ليس نصا أدبيا وجماليا فحسب.

3- النسق من حيث كونه دلالة مضمرة، تكون هذه الدلالة ليست من صنع مؤلف، ولكنها منغرسة في الخطاب، فتكون الثقافة مؤلفتها، وجماهير اللغة من كتاب وقراء هم مستهلكوها، فيتساوى في ذلك الكبير والصغير، والنساء والرجال، والمسود والمهمش.

4- النسق يتصف بكونه ذا طبيعة سردية، متحركا في حبكة متقنة؛ فلذلك فهو خفي ومضمر، مستخدما أقنعة كثيرة، أبرزها وأهمها قناع الجمالية اللغوية.
5- تتصف الأنساق الثقافية بأنها أنساق تاريخية وأزلية، علامتها اندفاع الجماهير لاستهلاك المنتوج الثقافي المحتوي على هذا النوع من الأنساق، فالاستجابة السريعة تشير إلى محرك مضمر يؤسس الحبكة النسقية.

فالنقد الثقافي عند عبد الله الغذامي أحد فروع النقد النصوص العام، وهو تابع لعلوم اللغة وحقول الألسنية؛ بمعنى نقد الأنساق المضمرة، المنطوي عليها الخطاب الثقافي بكل أنماطه وتجلياته وصيغه، ما هو غير رسمي ومؤسساتي، وهمه كشف المخبوء تحت أقنعة البلاغي، فهو بمثابة صنف من علم العلل في اصطلاح علم الحديث الذي يكشف السقطات في المتن، فهو يبحث في علل الخطاب، ويستخرج الأنساق المضمرة ويرصد حركتها(الغذامي، 2005، ص: ٨٣-٨٤).

كما يعتبر (أرثر أيزابرجر) من النقاد الغربيين البارزين الذين تناولوا موضوع النقد الثقافي في ما بعد الحداثة؛ حيث درس عدة نظريات في ضوء النقد الثقافي، وكانت نظرية الأدب وثيقة الصلة بالدراسات الثقافية(أيزابرجر، 2003، ص: 43).

واعتقد بارسونز أن النسق الثقافي له سلطة فعلية مرتبطة بالمواقف الواقعية العملية وبالسلوك؛ فهي مستمدة وجودها من سلطة الثقافة نفسها؛ فهي ليست تشكيلا للعلاقات الاجتماعية عبر عملية دينامية في المجتمع الثقافي فحسب، بل هي أساس منطقي شامل في التصوير الجمالي في الخطاب الثقافي لأشكال هذه السلطة، وهي لن تظهر إلا بالاستقراء(علميات، 2004، ص: 29).

ب- بيان الفحولة في اللغة والاصطلاح، وذكر منزلتها بوصفها مكانة اجتماعية تمنح للشاعر الجاهلي.

الفحل لغةً.

يطلق على الذكر من الحيوان فحل، ويجمع على فحول وفحال وأفحل وفحالة، ويطلق على الذكر الشجاع القوي لفظ الفحل(الجوهري، ١٩٨٧، 5/ 1789. ابن فارس، ١٩٧٩، 4/ 478. الزَّبيدي، د. ت، ٣٠/ 149).

- **الفحل اصطلاحا.**

ذكر الفيروزآبادي أن لفظ الفحل أطلق على الشعراء البالغين من هاجاهم بالهجاء، نحو الجرير والفرزدق، كما يطلق على الشاعر الذي عارض شاعرا وتغلب عليه، نحو علقمة الذي عارض امرأ القيس وغلبه(الزَّبيدي، د. ت، ١٠٤١)، ويرجع تاريخ هذا المصطلح إلى أوائل النقاد نحو أبي عمرو، والأصمعي، وابن سلام الجمحي، الذين أطلقوا لفظ الفحل على الشعراء، فقد أطلق الأصمعي لفظ الفحل على الشعراء الذين لهم مزية على غيرهم، كمزية الفحل على غيره(الأصمعي، 1953، ص: 8).

وذهب أن الشاعر لا يصير فحلا في قريض الشعر حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، وتدور الألفاظ في مسامعه، ويعرف المعاني، وأول ذلك من خلال معرفته بعلم العروض والنحو؛ فيستقيم الوزن ويصلح اللسان من اللحن، ومعرفته بعلم النسب؛ ليعرف من خلاله المثالب والمناقب(القيرواني، 1981، 1/ 198).

وذهب الدكتور إحسان عباس إلى أن الفحولة صفة عزيزة تعني التفرد الذي يتطلب غلبة صفة الشعر على كل صفات أخرى في المرء، فمثلا حاتم الطائي يقول قصائده ويوضع في فئة الأجواد إلا أنه لا يسمى فحلا، وهكذا أشباه عنترة وزيد الخيل فإنهم فرسان يقولون شعرا(عباس، 1971، ص: 53).

- **وتتمثل شروط الفحولة في الآتي:**

1- تتطلب الفحولة عددًا معينًا من القصائد تكفل لصاحبها التفرد، فالقصيدة الواحدة كمرثية كعب بن سعد الغنوي لا تجعل صاحبها فحلاً، ويتفاوت هذا العدد فهو خمس قصائد أو ست أو عشرون(عباس، 1971، ص: 53).

2- أن يكون راوية، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ؛ بحيث أنه إذا روى استفحل؛ وذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة(القيرواني، 1981، 1/ ١٩٧).

3- يجب أن يكون على معرفة بعلم العروض؛ حتى يكون ميزانًا له على ما يقول(القيرواني، 1981، 1/ 198).
4- يجب أن يكون على معرفة بعلم النحو؛ لتجنب اللحن في القول، وليقيم به إعرابه(القيرواني، 1981، 1/ 198).
5- يجب أن يكون على دراية بأيام الناس والنسب؛ ليعرف المناقب والمثالب وذكرها سواء بمدح أو ذم(القيرواني، 1981، 1/ 198).
ومن يتأمل هذه الشروط التي وضعها ابن قتيبة والأصمعي يجد أنها غير ملتبسة بالفروسية لدى الأصمعي، إلا أنها اتجهت هذا الاتجاه - اشتراط الفروسية لدى الشاعر الفحل - عند أبي عبيدة؛ فكانت الفحولة عنده ضد التخنث، فكانت صفة القوة هي المقياس لدى العلماء الرواة(عباس، 1971، ص: 53-٥٤).

- **أهم الفحول في شعراء الجاهلية.**

ذكرهم ابن سلام في الطبقة الأولى، كالآتي(ابن سلّام، د. ت، 1/ 51- 52):
1- امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر.
2- النابغة بني ذبيان واسمه زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر.
3- زهير بن أبى سلمى.
4- الأعشى، وهو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف.
5- مرقش.
وذكر ابن سلام أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر، وأن أهل الحجاز كانوا يقدمون زهيرا، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى(ابن سلّام، د. ت، 1/ 52).
كما وضع ابن سلام في الطبقة الرابعة: طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعدي بن زيد، وعلقمة بن عبدة بن ناشرة، وسبب وضعهم هنا في الطبقة الرابعة، مع أن موضعهم يجب أن يكون مع الأوائل، هو قلة شعرهم عند الرواة(ابن سلّام، د. ت، ١/ ١٣٧).

- **المحور الثاني: نسق الفحولة، ومفهومه العام.**

الناظر للمعنى اللغوي لهذا المصطلح يجد أنه خاص بالذكر فقد، وذلك يعني هيمنة الذكور في الشعر العربي القديم، فنبغت شاعرات ولم يطلق عليها شاعرة فحلة مثلا؛ ولذلك أشار الغذامي إلى الأنا في الشعر القديم؛ حيث تساءل إن كانت هذه الأنا متجذرة من الثقافة العربية، أم هي صورة ابتدعها الشعراء من أجل الهيمنة الذكورية(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: ٩٣).
وقد سبقت بالذكر أن عبد الله الغذامي يرى أن من يقرأ النص من وجهة نظر النقد الثقافي يشترط كونه في حالة ثقافية متطلبة محددات الوظيفة النسقية بوجود نسقين يحدثان في وقت واحد، أحدهما ظاهر والأخر مضمر، والمضمر مضاد للظاهر، وأن يكون مستهلكا وجماهيريا، وانطبقت هذه المواصفات على الفحولة؛ لذا دخلت في مجال النقد الثقافي، ومن ثمَّ كان للنقد الثقافي دور في الكشف عن العيوب النسقية والمصادر المضمرة في الشعر.
ومما عضد ذلك قول الله عزوجل عن الشعراء: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾(سورة الشعراء، آية 226).
ذكر الغذامي أنَّ **العيوب النسقية** في الشعر العربي هي السبب وراء عيوب الشخصية العربية نفسها، ، فمثلا شخصية المنافق والشحاذ والطماع والكذاب من ناحية، وشخصية فحل الفحول، الفرد المتوحد، صاحب الأنا الناقبة لغيره المتضخمة من جهة، كما أن شخصية المادح والممدوح ترتب عليها منظومة من قيم نسقية منغرسة على مر الأزمان لتظهر صورة العلاقة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، فمثلا ثقافة المديح التي تنبني على الكذب مع قبول كل من المادح والممدوح، فقد لعبوا لعبة التكاذب مستمعتين بها حتى صارت لعبة جمالية من أكثر الجماليات فاعلية في الشعر العربي القديم(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: ٩٤).
وذكر أنَّ من هذه العيوب التصور المزدوج للشعر؛ حيث ظلَّ يظهر على صورتين متضادتين، أحدهما: تعظمه وتجعله في مكانة عليا، بينما الأخرى: تقلل من شأنه وتزهد فيه، فكان الشعر بين هاتين الصورتين: الأمير – العبد، العزيز الحقير(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: ٩٤).

كما ذكر الغذامي أن أحد هذه العيوب اللافاعلية؛ حيث سلبت القيمة العملية للغة؛ حينما فصلت بين القول والفعل، ورفعت المسئولية عن الذات عما تقول، فكان الشعراء يكسبون المال والسلطة والجاه من شعرهم، فصورا الباطل في الحق، والحق في الباطل، وروجت الثقافة هذا الشعر وجملته لنا وحببته إلينا، فتطلب منا أن نسعى بأن نتعرف على هذه العيوب النسقية والمصادر المضمرة(الغذامي، ٢٠٠٥، ٩٩-١٠٠).

وقصر الأصمعي الفحولة لدى الشعراء بالهجاء والمدح، وجعلهما أساسا لتصنيف الشعراء الفحول؛ لأن هذين الغرضين من أهم الأغراض لدى الشاعر العربي القديم؛ فالشاعر هم من يدافع عن قبيلته بهجاء من عداها، ويمدح قبيلته ويفخر مآثرها.

ومما دلَّ على ذلك ذكر المزرباني أن الشاعر ذا الرمة قيل عنه: ربع شاعر، ولم يلحق بفحول الشعراء، وكانت العلة من ذلك أنه لم يحسن كلا من المدح والهجاء(المرزباني، ١٩٩٥، ص: ٢٢٥).

ولذلك لما جاء الإسلام، وقل الصراع الإنساني، فلم يكن صراع بين القبائل كما كان في الجاهلية، قلت فحولة الشعراء كما يرى الأصمعي؛ لأنه ربط الفحولة بالهجاء والمدح، وقلَّ الهجاء بقلة الصراع، فكبح ذلك جماح الشعراء(الجارد، 1993، ص: 344).

كما ذكر ابن سلام معايير تخفض من مرتبة الشاعر الفحل إذا وجدت في شعره، وهي متمثلة في أربعة: الزحاف والسناد والإيطاء والإكفاء؛ أي الإقواء، والزحاف أهونها وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء فينكره السمع ويثقل على اللسان(الجارد، 1993، ص: 344).

- معايير الفحولة عند الغذامي:

ذكر الغذامي أن الفحل ارتبط بالتعالي والتفرد مثلما ارتبط بتوظيف اللغة توظيفا منافقا؛ حيث يصور الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وهذا التعالي يؤدي إلى إلغاء الآخر وتحقيره(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: 120).

فالشعراء هم طبقات أربع: الخنذيذ، وهي الأرقى، والمفلق، ومن تحته الشاعر، ومن تحت التحت هو الشعرور، فيرى الغذامي أنه كان ليس لأحد الحق في معارضة الشاعر، حتى وإن كانوا من علماء اللغة، فقد وردت حكايات عن بشار والبحتري لبيان تميزهم؛ فالفحل يأتي على رأس الهرم الطبقي ويبدأ باكتساب صفاته خلال صفات خاصة به؛ حيث يحتكر لنفسه حق وصف الذات، وهو الوصف الذي اصطنع السمات النسقية للشخصية الثقافية النموذجية(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: 124: 126).

- **تهشيم نسق الفحولة.**

عاب عبد الله الغذامي على النقد الأدبي الذي تناول الحادثة التي قامت بها (نازك الملائكة)؛ حيث ناقشت مشروع الشعر الحر (قصيدة التفعيلة) بوصفه حادثة ثقافية، لكسر عمود الفحول، وإحلال نسق غيره بديل منطوي على قيم جديدة تنتصر للمؤنث والمهمش، وتؤسس لخطاب إبداعي جديد له سمات النسق المفتوح على عناصر الحرية والإنسانية(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: 246).

إلَّا أنَّ نزارا وأدونيس توليا إعادة الروح للنسق الفحولي بكل سماته الفردية المطلقة والفحولية التسلطية، عبر الاستفحال الذي يمثله نزار، والتفحيل الذي يمثله أدونيس(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: 247).

-المحور الثالث: الشعر الجاهلي وارتباطه بنسق الفحولة.

الشعر هو ترجمان الأحاسيس ولغة العواطف، فكان يصور الجمال في صور ساحرة القلوب، ومثيرة للوجدان، وباعثة على الإعجاب والارتياح؛ ولذا هو من أبرز الفنون والآداب.

وكان للشعر منذ القدم قيمة وشأن عظيم في تاريخ الأمم والشعوب، بإظهار مواهبها، وتخليد أمجادها ومفاخرها، لذا قدروا الشعر والشعراء، وعظموهم، فاحتل الشاعر أعلى مكانة في قومه، وذكر ابن رشيق أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت إليها القبائل مهنئة، وصانعة للأطعمة، وتباشر الرجال والولدان، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يفعلن في الأعراس؛ لأنه يحمي أعراضهم، ويُخلد مآثرهم، ويذب عن أحسابهم، ويشيد بذكرهم، فكانوا لا يهنئون إلا بظهور شاعر نابغ، وغلام يولد، أو فرس تنتج(القيرواني، ١٩٨١، 1/ 65).

وقد كان الشعر في العصر الجاهلي ديوان علم العرب، ومنتهى حكمهم، إليه يصيرون، وبه يأخذون، وذكر ابن سلام عن عمر بن الخطاب أن الشعر كان علم قوم، ما كان لهم أصح منه(ابن سلّام، د. ت، 1/ 24).

ولما جاء الإسلام انشغل العرب بالجهاد وغزو فارس والروم عن الشعر، فلما كثرت الفتوح واستقر العرب بالأمصار، اتجهوا إلى مراجعة رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وكان ذلك وقت هلاك كثير من العرب، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير، إلا أنه وُجِدَ ديوان فيه أشعار الفحول(ابن سلّام، د. ت، 1/ 25).

- **أغراض الشعر الجاهلي:**

لم يؤلف الشاعر قصيدته في الشعر الجاهلي في غرض واحد ، فندر وجود قصيدة متكونة من غرض واحد، بل كانت في الغالب متألفة من أكثر من غرض، فمثلا نجد القصيدة الواحدة محتوية على والفخر والهجاء، والوعيد، وعلى الوصف والغزل، وقد تحتوي على أغراض أكثر، وذلك تابع للشاعر وهواه، والمثيرات المهيجة لعواطفه المحركة لمشاعره، وحسب وطواعية الشاعرية له(الجندي، 1991، ص: 344).

والقصيدة الطويلة المتضمنة أكثر من موضوع ربما كانت تؤلف بكافة موضوعاتها المختلفة دفعة واحدة، أو على فترات؛ أي: أنَ الشاعر كان يؤلف أبياتًا في موضوع ما، ثم مضت فترة من الأيام، فعني له أبيات لكن من موضوع آخر، فيأتي بها على نفس القافية والوزن، وذلك يكون في موضوعات عديدة، ثم يربط بينهم بما رآه مناسبًا، فتكون القصيدة الواحدة متعددة الأغراض والموضوعات(الجندي، ١٩٩١، ص: 344).

كما انتقلت الرسالة الثقافية من فحولة القبيلة لفحولة الفرد، ثم صارت قيما نمطية للشخصية الثقافية للإنسان العربي عبر انغراسها في النسيج اللغوي، وصارت النفس تستجيب لدوعي الوجدان أكثر من دواعي التفكير، حتى صارت كائنا شعريا ساكنا للشعر ولا تتحرك إلا من خلال المعنى الشعري الذي طربت له، غير مهتمة بالحقيقة(الغذامي، ٢٠٠٥، ص: 105).

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية: نسق الفحولة في شعر طرفة بن العبد

- **فحولة الحرب والقتال.**

ونعني بفحولة الحرب والقتال الهيمنة الذكورية لدى الشاعر الفحل، التي تبرز فروسيته في الحروب المتمثل في شعره، وفي ذلك يقول طرفة بن العبد - من المديد:

"ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داع، منَ العشيرة: هَيْتُ
هم يُجيبون: واهلمَّ سراعا كالأبابيلِ لا يغادَرُ بَيْتُ"(الشنتمري، 200م، ص: 147)

والشاعر هنا يفخر بإقدام قومه في الحروب والقتال، ومما دلَّ على ذلك حينما ينادي المنادي بـ"هيت" أجابوا على الفور "هلمَّ سراعا" مما يوحي بسرعة الاستجابة، ووصفهم في اندفاعهم بطير الأبابيل التي جعلها الله عذابا لإبرهة الحبشي الذي أراد أن يهدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل أهلكتهم جميعا.

وهنا يتضح فحولة القبيلة وهيمنتها في قوله: قومي.

وتحول من فحولة القبيلة لفحولة الفرد في قوله- من الكامل:

"ولَقد شَهِدتُ الخيلَ وَهْيَ مُغيرةٌ ولَقد طَعَنْتُ مَجامِعَ الرَّبِلاتِ
رَبِلاتِ جُودٍ، تحتَ قَدٍّ بارعٍ حُلوِ الشّمائلِ، خِيرةِ الهَلَكاتِ
رَبِلاتِ خَيلٍ، ما تَزالُ مُغيرَةً يُقطِرنَ من عَلَقٍ على الثُّنَّاتِ"(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: 147)

فنجد في شعره شخصية "الأنا" المتجلية في قوله: "شهدتُ، وطعنت"، حيث يفخر بنفسه أنه ضرب فخذ الفرس، حتى صار الدم يقطر على الثنات، وهي شعرات تكون بنهاية رجل الفرس، مما يوحي بشدة ضربته للخيل.

فالظاهر في شعره أنه طعن الخيل، والمضمر أنه طعن الفارس الذي امتطاها.

وهنا تتجاوب الذات الشاعرة مع روح القبيلة.

- **فحولة العتاب والاتهامية.**

وتعني فحولة العتاب إظهار الشاعر الفحل المآسي التي مر بها وكان الآخر سببا لهذه المآسي، وكانت هذه المآسي سببا في الفردانية التي عانى منها شاعرنا - طرفة بن العبد - حيث انفصل عن قبيلته وقومه، وذلك

أثر على شعره الذي أظهر استغناءه عنهم؛ فقد روت المصادر أنَّ طرفة كان هجاء جريئا على قومه وغيرهم؛ لأنه حينما توفي أبوه كفله أعمامه وأبوا أن يعطوه ماله، فقد ترك ظلم أعمامه عنده ردّة فعل سلبية، فلم يستسلم للأمر الواقع، ولذلك كثر هجاؤه لهم(الدينوري، 1423، 1/ 184. الشيباني، 2001 م، ص: 79. الغلاييني، د. ت، ص: 23).

فيقول معاتبا أخوال أمه الذين ظلموها حقها؛ فهي من رهط أبيه - من الكامل:

ما تنظرون بحق وردة فيكم صَغُرَ البنونُ ورهط وردة غُيَّبُ
قد يبعث الأمر العظيم صغيرُهُ حتى تظل له الدماء تصبّبُ
والظلم فرَّق بين حبَّي وائلٍ بكرٌ تساقيها المنايا تغلب(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: 12)

تظهر في بداية هذه القصيدة فحولة القبيلة المتمثلة في قوله: "ما تنظرون" فالشاعر هنا يعاتب قومه - قوم بكر- على ظلمهم لأمه وحبس مالها عنها، فكأنه يقول: ماذا تنتظرون أن يُفعل بكم جزاءا على ظلمكم لوردة - أم طرفة - ماذا تنتظرون ورهطها الذين ينتصرون لها غائبون وأولادها صغار؟!

ويتحول الشاعر من فحولة القبيلة إلى فحولة الفرد المضمنة في قوله: "صغر البنون"، حيث دلَّت على ذات الشاعر؛ حيث اعتبرت هذه القصيدة أوَّل ما قال طرفة من الشعر وهو صغير السن، فلا يليق بشاعر فحل كبير مثل طرفة أن يقول هذا الشعر.

كما تتجلى فحولة الفرد في قوله: "قد يبعث الأمر العظيم صغيرُهُ ... حتى تظل له الدماء تصبّبُ".

فحولة الفرد متمثلة ضمنا في قوله: "الأمر الصغير"؛ حيث قابل الشاعر هنا بين حالته مع قومه وبين بكر وتغلب، فهو يذكرهم بحرب البسوس التي كانت بين بكر وتغلب، وكانت الغلبة لتغلب على بكر- قوم طرفة- فهو يذكرهم بنتيجة الظلم؛ حيث كان السبب الظاهر لهذه الحرب صغيرا؛ لكنه صار جللا كبيرا، فهو تحذير لهم ألا يستهينوا بالأمر الصغير؛ أي: لا تستهينوا بهذا الولد الصغير، كما استهنتم بتغلب فسقتكم المنايا.

وهنا الشاعر فحل رغم صغر سنه، فعندما قال هذه القصيدة كان صغيرا؛ إلا أن ألفاظه صريحة، ويظهر منها الهجاء لهم بهزيمتهم على يد تغلب، والعتاب لهم بظلمهم لأمه، فيقول - من الطويل:

"إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردتُ إفراد البعير المعبد"(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: ٤)

وفي هذا البيت تتجلى فحولة القبيلة وهيمنتها في قوله: تحامتني، ثم تحول لفحولة الفرد المتمثلة في الأنا في قوله: "أفردتُ"، فهو يعاتب قومه الذين تركوه وحيد كالبعير الأجرب الذي يبتعد عنه الجميع مخافة أن يلحق بهم ضرر.

ويقول حينما تركته صحبة السوء، خالي اليدين - من السريع:

"سلمني قومي ولم يغضبوا لسَوْءة حلت بهم، فادحهْ
كلُّ خليلٍ كنت خاللته لا ترك الله له واضحهْ
كلهم اروغ من ثعلبٍ ما أشبه الليلة بالبارحهْ"(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: ٤)

وهنا تهيمن فحولة القبيلة، بقوله: "سلمني، يغضبوا"، ثم تحول من فحولة القبيلة لفحولة الفرد في قوله: "كنت".

وهنا الشعر يعاتب قومه بأنهم من جعلوه يتجه لصحبة السوء، فلا يلوموا عليه أفعاله.

ويقول من الرَّمل:

"ولَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أنّنَا آفةُ الجُزْرِ مَساميحٌ، يُسُرْ
ولَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أنّنَا واضِحُوا الأوجُهِ، في الأزمَةِ، غُرّ
ولَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أنّنا فاضِلُوا الرّأي، وفي الرّوعِ وُقُرْ
ولَقَد تَعْلَمُ بَكْرٌ أنّنَا صادقُو البأسِ وفي المَحفِلِ غُرّ"(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: ٤٤)

من يتأمل الأبيات يجد "الأنا" المتمثلة في ذات الشاعر متجلية في قوله: "أننا" التي تكررت أربع مرات في صدر كل بيت من هذه الأبيات، فالنسق الظاهر فحولة القبيلة وفخره بأنه من بني بكر ويمدحهم بالكرم

والعطاء بقوله: المساميح - جمع مسماح - أي: الكريم السخي، وقوله: "صادقوا البأس"، و"الأغر"، و"وقر" أي: إذا أصابهم خوف شديد فهم مهيبون ليس بجبناء، فالظاهر المدح؛ فـ"أننا" صورة نمطية تكررت في النسق الفحولي لتعظيم القبيلة، كما أتى بصيغة المبالغة " مساميح" جمع سمح للتعظيم.

وقد يضمر الشاعر الهجاء لهم والمعاتبة والاتهامية إذا تحول المقام إلى حديث الشاعر عن نفسه مفاخرا أما قومه بأنه يتصف بتلك الصفات حينما كانوا يلقون عليه اللوم بلهوه ويعاتبونه، فيتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لمناسبة المدح لنفسه والاعتزاز بها وتعظيمها، وبهذا تكون الفحولة المهيمنة هنا فحولة الفرد، وهو طرفة، وليست فحولة القبيلة - أي: قومه بني بكر.

- **فحولة الضحية.**

تتجلى الفحولة من خلال موقف طرفة بن العبد وخاله المتلمس مع الملك عمرو بن هند، حيث يتجلى فيه التحدي والمواجهة مدفوعا بنسق الفحولة، ومن ثم مآلات ونتائج واقعية نتجت عن النسق؛ فقد روت المصادر أن الملك عمرو بن هند سمع أن طرفة هجاه وقال فيه - من الوافر:

"فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا، حول قبتنا تخورُ
لعمرك إن قابوس بن هندٍ ليخلط ملكه نوك كثيرُ"(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: ٧)

فغضب الملك غضبا شديدا، ولم يعجل بعقابه لمكانته في قومه، ولما طالت المدة ظن أن الملك قد عفا عنه، وكان المتلمس قد هجا عمرو بن هند كذلك، ولكنه أظهر لهما المحبة ليأنسا به، ولما طال مقامهما عنده قال لهما: لعلكما اشتقتما إلى أهلكما، فأخبراه: نعم. فكتب لهما إلى عامله بالبحرين، لقبه المكعبر، فوجد المتلمس غلاما من الحيرة، فسأله أن يقرأ له فحوى الكتاب، فأخبره أن فيه يقطع أيديه ورجليه ويدفنه حيا، فرمى المتلمس صحيفته في نهر، وذهب ليخبر طرفة بذلك، إلا أنه ظن أن الملك لن يجترأ عليه كما اجترأ على المتلمس، فهرب للشام، وذهب طرفة لعامل البحرين، فسأله إن كان يعرف فحوى الكتاب، فأخبره: نعم، فالملك قد أمر بالإحسان إليه وإجازته، فأخبره بأنه أراد قتله، وأمره أن يهرب وينجو بحياته، فأبى، فلن يهرب ويجعل للملك عليه سبيلا، فسجنه ولم يقتله، وأرسل للملك أنه لن يقتل طرفة بن العبد، فبعث إليه الملك رجلاً يقال له: عبد هند البحرين، وكان رجلا شجاعا، واستعمله على البحرين، وأمره بقتل طرفة وقتل ربيعة بن الحارث العبدي. وانتدب لطرفة رجل من عبد القيس ثم من الحوائر، فقتله(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: ٨).

فكان هذان البيتان سببًا في قتل طرفة بن العبد شابا، لم يتعدى الثلاثين.

عبر طرفة هنا بفحولة القبيلة بذكر ضمير الجمع للتعظيم الظاهر في قوله: "لنا"، وضمير الجمع في " قبتنا"؛ فمن يرى الجمع هنا في البيتين يظن هيمنة (نحن) المتضخمة، أي: فحولة القبيلة، إلا أن الشاعر هنا قصد نفسه لتعظيم ذاته وتعاليها حتى عن الملك الذي دام مدحه له؛ وهذا يبرز لنا الفحولة التي تعني التميز والتعالي عن الآخر؛ فالآخر هنا متمثل في الملك "عمرو بن هند"، فالشاعر في هذا البيت فحل الفحول فالغرض من البيت الهجاء، ويهجوه ويظهر ذاته عن ذات الملك بقوله: "لنا"، و"قبتنا".

كما روى ابن السكيت أبياتا له يرثي فيها نفسه، وهذه الأبيات لم يروها الأصمعي، حيث قال - من الطويل:

"ألا اعتزليني اليوم يا خول أو غضي فقد نزلت حدباء محكمة العضِّ
أزالت فؤادي عن مقر مكانه فأضحى فؤادي ما به اليوم من نهضِ
وقد كنت جلدا في الحياة مزرأ وقد كنتُ لباس الرجال على بغض
فحسبي من الداء الذي لبس بارحي وبعض هموم لم يكد وجدها يفضي
ألم تر أن العين بُعْثَ سجومها من الدمع حتى لم يكد جفنها يُغضي
كأنَّ معاج السنبل الورد فيهما أذاعت به الأرواح في ورق الحمضِ
وكنا على ذي مرة وسط قومنا ضبيعة قد ما نضرب الناس عن عِرضِ(الشنقيطي، ١٩٠٩، ص: 47- 48)

ويذكر الشنقيطي فيما ذكره عن ابن السكيت أن هذه الأبيات رواها أبو عبيدة لعمرو بن هند وللعبدي الذي جاءه بالكتاب، وكان قد أرسل إليه جارية تدعى خولة فرفضها(الشنقيطي، ١٩٠٩، ص: 47- 48).

وتظهر في الأبيات فحولة الفرد المهيمنة في قوله: "اعتزليني"، "فؤادي"، "قد كنت"، "حسبي".

فالشاعر هنا يرثي نفسه عما صارت إليه، فأمر الجارية أن تغض الطرف عنه وتتركه؛ فقد أصابته داهية كبيرة، سجينا بعد أن كان قويا كثير العطاء والصرف في شهواته، فكان يفخر بنفسه في أنه كان يصرف على لباس الرجال رغم بغضه لهم، مما دلَّ على حسن العشرة، ولكنه صار في هذه الحالة تنهمر دموعه من شدة الأسى على نفسه لو انعصر منها البان والمسك انعصر.

ثم يتحول من فحولة الفرد إلى فحولة القبيلة المتمثلة في قوله: "كنا، وقومنا"، فيتذكر قومه وقوتهم بأنهم كانوا يضربون الناس بغير مبالاة.

كما رثته أخته بقولها - من الكامل:

"عددنا له ستًّا وعشرين حجةً فلما توفاها استوى سيداً ضخما"(طَرَفَة بن العَبْد، ٢٠٠٢، ص: ٨)

ويظهر في قولها: "عددنا" فحولة القبيلة، ووظفت الشاعرة الأنا لأخيها في الضمير الظاهر في "له، توفاها"، والمضمر في قوله: "استوى" العائد على طرفة، وفي رثائها له هذا البيت تفخر بمنزلته الأدبية؛ فعلى الرغم من أنه أتم السادسة والعشرين إلا أنه بلغ كمال الرجولة، وهذا يظهر في قولها: "استوى سيدا ضخما"، فلم يكن الأرعن كما يظن الكثيرون الذي يتمرد على قومه فقط، بل كان له رجاحة عقل ورزانة وفصاحة، ولكن قومه هم من ظلموه.

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذه الدراسة التي أرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت فيها، يمكن إجمال أهم النتائج التي توصلت إليها في الآتي:

1- أنَّ النسق الثقافي عبارة عن تشريعات أرضية وقوانين وضعها الإنسان في مقابلة التعاليم السماوية التي أنزلها الله تعالى في الشرائع ، وقام بوضعها الإنسان لتصريف أموره وضبط نفسه.

2- ويرجع تاريخ مصطلح الفحولة إلى أوائل النقاد نحو أبي عمرو، والأصمعي، وابن سلام الجمحي، الذين أطلقوا لفظ الفحل على الشعراء.

3- قلت فحولة الشعراء لما جاء الإسلام؛ حيث قل الصراع الإنساني، فلم يكن صراع بين القبائل كما كان في الجاهلية.

4- كان للشعر منذ القدم قيمة وشأن عظيم في تاريخ الأمم والشعوب، بإظهار مواهبها، وتخليد أمجادها ومفاخرها، لذا قدروا الشعر والشعراء، وعظموهم، فاحتل الشاعر أعلى مكانة في قومه.

5- من أكثر أغراض الشعر انتشارًا في العصر الجاهلي: الهجاء والمدح.

6- تتميز شخصية فحل الفحول، الفرد المتوحد، صاحب الأنا الناقبة لغيره المتضخمة من جهة.

المصادر والمراجع:

أوَّلًا: القرآن الكريم.

ثانيا: الديوان

1- ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقَّال، المؤسسة العربية، بيروت، ط2، 2000.

2- ديوان طرفة بن العبد: طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي (ت: 564م)، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، 2002.

ثالثا: قائمة المصادر والمراجع

1- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط15، 2002.

2- تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت.

٣- تاريخ النقد الأدبي عند العرب: دكتور إحسان عباس (ت: ١٤٢٤هـ)، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٧١.
٤- جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي أنموذجا: يوسف علميات، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 2004.
٥- دراسات نقدية، د. محمود الجارد، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1993.
٦- رجال المعلقات العشر: مصطفى بن محمد سليم الغلاييني (ت: 1364هـ)، د. ت.
٧- شرح ديوان طرفة بن العبد: أحمد بن الأمين الشنقيطي، مطبعة سي، قازان، ١٩٠٩.
٨- شرح المعلقات التسع: منسوب لأبي عمرو الشيباني (ت: 206 هـ)، تحقيق وشرح: عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، 2001.
٩- الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)، دار الحديث، القاهرة، 1423.
١٠- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري وآخرون، دار الفكر المعاصر - دار الفكر، بيروت – دمشق – سورية، ط١، ١٩٩٩.
١١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: 393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987.
١٢- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (ت: 232هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د. ت.
١٣- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت: 463 هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، 1981.
١٤- فحولة الشعراء: أبو سعيد الأصمعي، شرح وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، وطه محمد الزيني، المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة، ط١، 1953.
١٥- في تاريخ الأدب الجاهلي: علي الجندي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، 1991.
١٦- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: أحمد يوسف عبد الفتاح، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010.
١٧- المحيط في اللغة: إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد (ت: 385هـ)، د. ت.
١٨- معجم اللغة العربية المعاصرة: د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، بيروت، ط١، 2008.
١٩- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (ت: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، 1979.
٢٠- معجم الشعراء العرب، تم جمعه من موقع الموسوعة الشعرية، د. ت.
٢١- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت: 384هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
٢٢- النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية: أرثر أيزابرجر، ترجمة: وفاء إبراهيم، ورمضان بسطازيسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، 2003.
٢٣- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت: 606هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت، 1979.
٢٥- النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية: عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2005.